

حوار حول القدر

شخصيات الحوار:

صونيا: صاحبة المنتدى الأدبي، سيدة ثرية جميلة مثقفة.

سليمان: مثقف يحمل لواء العقل وسيادة قوانينه.

سلوى: متخصصة في علم الأديان المقارن.

محمود: مزارع.

ميرفت: متصوفة على الطريقة الهندية الأميركية.

حسام: شاعر مبدع يملك ثقافة موسوعية، محبب.

صونياً:

يا من حوى ورد الرياض بخده

وحوى قضيب الخيزران بقده

هل معنى ذلك أن أجمل البشرات هي البشرة البيضاء المشربة بقليل من الحمرة، وأن أجمل القامات هي القامة الرشيقة التي تتلوى ولا تتكسر لفرط طوعيتها وقدرتها على الانطلاق ودائماً الى الأعلى؟

ترى هل الأفكار في منتدانا قادرة أن تكون بيضاء في تعبيرها عن مكونات النفوس بصدق طاهر لا يخالطه سواد التعصب لرأي معين أو الجمود عند أيديولوجيا معينة. أو التصنم في عبادة طواطم الأسلاف. وهل تكون العبارات في حواراتنا رشيقة مطوعة تتلوى على محور المنطق ولا تشرذم بعيداً فتضيع ، ودائماً تنهد للإمساك بالفكرة الأسمى.

أيها الأصدقاء والصديقات عتم مساءً، لقد أدخل حضوركم الفرح الى قلبي فانتشى وأخذ يخفق طربياً، إنها لذة الصداقة التي تثبت ما كان يقوله سليمان دائماً، أن الإنسان لا يستطيع أن يرى وجهه بوضوح إلا على مرآيا الآخرين.

حسام: سيدتي الكريمة، هل تسمحين لي أن اكون كاهناً نذر نفسه للعبادة والخدمة في هيكل جمالك المهيب. عندما يقترن الجمال بالجلال لا يحق للإنسان إلا الخشوع والتضرع والتمني وطلب الرحمة. أنا لا أشك أبداً أن الآلهة عندما ترغب بالتمظهر لبني البشر تتمظهر بصور إنسانية كصورتك لكي يستأنس بها الناس ويعبدوها موجودة ينظرون اليها بأعينهم الشحمية، حتى إذا قاربوها بأعين بصائرهم وجدوها نوراً على نور، يجذب الجمال لنوره من هو أكثر معرفة و عرفاناً، ومن يطل باطنه من ظاهره ومن هو قادرٌ على تجسيد خشوعه وتضرعه قصائد ورسومات وتمائيل وأنغاماً متناسقة تدخل القلب دونما استئذان.

سلوى: في مرحلة ما قبل الأديان الإبراهيمية كانت كل الأديان تؤمن بتعدد الآلهة وتخصص كل منها في مجال معين، وتوزعها بين مذكر ومؤنث، فالخصب والجمال له إلهته، والصيد والحرب له إلهه، وأما الاستقرار وممارسة الزراعة وبناء المدن فهو دائماً من نصيب القسم المؤنث من الآلهة، والمغامرة واقتحام المجهول والإبحار في المحيطات أو التوغل في الغابات فهو من نصيب المذكر من الآلهة.

ميرفت: الآلهة الذكور كان همهم ودينهم إشعال نار الحروب والنزاعات بين الشعوب والدول، ومساعدة الأقوياء المغامرين التي تغلب عليهم الروح البدوية للتعدي على الأناس الوديعين المستقرين في قراهم ومدنهم لنهب خيراتهم وسبي نسائهم واستعباد أطفالهم. أولئك الآلهة الذكور الذين يتلذذون شم رائحة الدماء وهي تهرق بصخب، وسماع صريخ النساء وهي تغتصب بأقصى درجات العهر والفجور. كانت الآلهات تبني والآلهة تهدم، الآلهات تزرع وتصنع والآلهة تحرق، الآلهات ترحم وتؤاسي والآلهة تعدي وتغتصب وتستعبد.

صونيا: أليس هذا أفضل من إله واحد غضوب يستلذ رائحة الدماء فيطلب دائماً الأضاحي، حتى لا يقنع أن يضحي له الملوك والأنبياء إلا بأولادهم البكر ليعينهم على قضاء حاجاتهم ومساعدتهم على النصر في حروبهم المجنونة ومغامراتهم الدونكيشوتية أليس هذا أفضل من إله ينتخب لنفسه شعباً مختلراً يسمح له بالتعدي والإغتصاب ويشيح بوجهه عن بقية الشعوب معتبراً إياهم مجرد عبيد وخدام "غوييم".

حسام: كانت تلك عصوراً ذهبية وصلت فيها الحضارة الى أعلى مستوياتها، فتعدد الآلهة ثم رجوعها الى إله أكبر كما في "الأولمب اليوناني" حيث يقف زوش على قمة الهرم كمرجعية لجميع القوى، يتلوه ديوتنسيوس إله الحركة واللذة والحصاد وعصر العنب لتحويله الى خمرة تفرح قلب الانسان، ثم تأتي أثينا إلهة الحكمة التي تساعد الجامحين على التوازن العقلي والنفسي، والعبثيين على معرفة أن كل نتيجة هي وليدة أسباب تجعلها حتمية، ثم تأتي أفروديت إلهة الحب والجمال والخصب التي تزرع الرغبات المحمومة في قلوب الرجال والنساء لكي تولد الأجيال الجديدة ويولد الانسان الذي هو إثنان في واحد. أفروديت التي تُعلم الناس أن الجمال هو في

التناسق والتناسب وإزالة الفضلات من الجسد والنفس معاً فتساعد على بناء الانسان المتوازن جسداً ونفساً، والمجتمع المتناسق بطبقاته وشرائحه وسلطاته وقوى إنتاجه.

ميرفت: كانت العلاقات بين الآلهة، وبينهم وبين البشر علاقات ديموقراطية تعتمد الحوار والنقاش وأحقية المعارضة والتنافس شرط أن يخدم كل ذلك أهدافاً مشتركة هي الخير العام والعدالة.

سليمان: كانت المعتقدات القديمة في آلهتها المتعددة وقواها المتنوعة أكثر محاكاة لطبيعة الانسان من تعدد قواه وتنوعها بين غريزة وعاطفة وخيال وعقل. وكانت تلك الآلهة المتعددة تتنافس وتتسابق وتتصارع على مراكز القيادة، ولكنها في أعماق ذواتها تعرف أنّ رأس الهرم هو قوانين العقل السببية المسؤولة عن التنظيم والتدبير والتنسيق فتعود الى الانضباط تحت مظلة التعددية في قلب الوحدة، والوحدة في قلب التعددية.

صونيا: هذا يعني أنّ الانسان كان سيداً حراً مستقلاً إذا أرادت منه الآلهة شيئاً فعليها أن تحاوره وتجادله وتحاول إقناعه بالأسباب التي ينتج عنها مسببات، والبراهين اليقينية التي يجب أن تقون دائماً بتمظهرات عملانية على أرض الواقع.

ميرفت: في العقائد الإبراهيمية إنتهى حق الانسان في مشاركة الآلهة في صنع الحاضر والمستقبل، إنتهى حق الانسان في صنع قدره بيديه، إنتهى فرح الانسان في محاكاة قوانين الطبيعة بأفعاله ومسلكياته، إنتهى حق الانسان في الخلق والإبداع، في التحليق عالياً في سماء الحرية، تحول الانسان الى عبد من عبيد الله، يؤمر فيأتمر، أصبح المعتقد أوامر ونواه ولم يعد حواراً ومشاركة وانجذاباً تلقائياً، أصبح المعتقد فرائض وتكاليف، إنتقل الانسان من مرحلة الإبداع الى مرحلة الاتباع، أصبح الإبداع هرطقة وزندقة وأصحابه خوارج يحل سفك دمائهم وسبي نسائهم ومصادرة أموالهم واستعباد أطفالهم. وبما أن الله لم يخاطبه أحد ولم يصاحبه أحد، غدا الحاكم هو الممثل الشرعي لله، وأصبحت إرادته هي إرادة السماء، فعبيد الله اصبحوا عملانياً عبيد الحكام. ثم تعاقبت فصول مسرحية العبودية في مصادرة عقول الناس

وحررياتهم فتصنم الانسان في هذا الشرق ولا زال حتى اليوم متصنماً لا تحركه حتى
الرياح الصرصر التي هبت على عاد وثمرود.

حسام:

كسرت يراعي فلا تعجبي

ومزقت طرسي فلا تعتبي

فلا أنت يا شرق بيت الأديب

ولا أنت توحى لمن يكتب

أفيك يذل الأديب الأريب

ويعتز فيك الجهول الغبي

سلوى: ليت الجهول يعتز فقط، فالانسان يجب أن يعتز بإنسانيته فهو سيد هذا
الوجود وغايته وسدرة منتهاه، ولكن لكي يعتز بإنسانيته يجب أن يفهم أبعادها
وجوهرها ليعرف كيف يحافظ عليها وينميها تطوراً وارتقاءً، لقد اكتسب الانسان
هويته الانسانية بالعقل والحرية والمسؤولية، فإذا سمح للآخرين أن يصادروا عقله
وحريته ويحولوه الى عبد يؤمر ويُنهى، عندها يكون قد تنازل عن إنسانيته وعن
مسؤوليته تجاه حماية إنسانيته والدفاع عنها بكل الوسائل.

ميرفت: الانسان ابن الله وخليفته في هذا الوجود، فالوجود له غاية من وجوده
والانسان هو غايته، والانسان له غاية من وجوده ومعرفة الله ومحبته هي غايته
والمعرفة برأيي المتواضع لا تكون تلقيناً من أعلى الى أسفل، وإنما تكون حواراً
تحت مظلة الاحترام المتبادل والثقة المتبادلة، فإذا لم يكن بين الانسان والله احترام
متبادل وثقة متبادلة كانت معرفة الانسان بالله مشوهة بل مغشوشة، وهذا ما أظنه
حاصل على أرض الواقع.

حسام: أنا أحب الله وأناجيه بخشوع وتضرع من خلال محبتي لجمال مخلوقاته
والتضرع لذلك الجمال ليجذبني اليه ببهائه وألقه حتى أعيش لحظات ذلك الحنان
الداقي الذي يفجر فيّ ينابيع الخلق والابداع.

صونيا: أظنّ أن فئة من الناس كانت تملك جينات العبودية في دماغها ابتدعت صورة الله الجبار العاتي الذي ليس لجبروته وعتوه حدود، والذي يتلذذ بتعذيب كل من خرج على أوامره ونواهيه بإلقائه بنار تتأجج بتواصل لا ينقطع، وكلما نضج جلد المخالف واسودّ وسال شحمه، استبدل بجلد آخر الى ما لا نهاية. حتى أنهم لم يكتفوا بذلك فصوروا الله يكبل المخالفين بسلاسل من حديد في الأيدي والأرجل والأعناق وهم في قلب النار المتأججة، لقد دخلوا على المخالفين حتى بحرية الحركة وهم يشوون كما تشوى الفراريج.

سليمان: الانسان حبيب الله وموضع أماناته، أمنه الله على نفسه وأمنه على مجتمعه وأمنه على وطنه وأمنه على كامل الكوكب الأرضي بما فيه وعلى كامل الوجود اللامتناهي. وعلمه بواسطة الهداية والمحاورة والإقناع بأن مصلحته هي في اكتشاف قوانين الطبيعة والتناغم معها، وفي اكتشاف قوانين العقل والتناغم معها، ليس التناغم معها لأن التناغم مفروض عليه فرضاً جبواً وعدمه يعتبر مخالفة تستحق العقاب، بل التناغم نتيجة الإقناع بأن سعادة الانسان ورقيّه هو في هذا التناغم.

محمود: لقد فهمت معنى التناغم مع قوانين الطبيعة، فأنا كمزارع أعرف متى يجب أن أفلح أرضي وأبذر بذوري، ومتى يجب أن أشذب أشجاري ومتى يجب أن أقطف ثماري، ومتى يجب أن أروي الأرض وأعشبها وأسمدها منسجماً في كل ذلك مع قوانين الطبيعة. ولكني لم أفهم ماذا قصد سليمان عندما قال أنّ الله جعل الانسان موضع أماناته وأولها أنه أمنه على نفسه، كيف يكون الانسان مؤتمناً على نفسه؟

سليمان: إن الله اختص الانسان وحده من بين الكائنات الحيّة بنفس عاقلة هي قبسٌ من نوره الشعشعاني تختزن في جوهرها الوعي والحرية والإحساس بالمسؤولية والقدرة على الخلق والابداع. إن هذه النفس العاقلة هي خمير الألوهية في العجين الانساني، إنها أمانة في عنق الجسد الحيّ وما يمتلكه هذا الجسد من رغبات وشهوات وغرائز وانفعالات، ولذا لا يحقّ للانسان أن ينحر حرّيته على مذبح شهواته، وأن يند عقله في رمال غرائزه مستنداً في كل ذلك الى عقيدة جبرية تصور الانسان ألعوبة في يد القدر يفعل به ما يشاء، فإن شاء أغناه دونما سبب، وإن شاء

أفقره دونما سبب، وإن شاء جعله ضعيفاً مريضاً جهلاً مهاناً، وإن شاء أعطاه ملكاً
وثروة ونفوذاً وجعل منه طاغوتاً يتحكم بإرادات الآخرين ومصائرهم.

سلوى: ولكن الله يعلم كل شيء ولا جديد في علمه، وبالتالي ما هو مكتوب في لوح
القدر يروي ما حدث وما هو حادث وما سيحدث ولا أحد يستطيع تغيير حرف
واحد، ألم يقل الزمخشري:

العلم للرحمن جلّ جلاله
ما للتراب وللعلوم وإنما
وسواء في غمراته يتقمم
يسعى ليعلم أنه لا يعلم

حسام: هكذا تصور يدل دلالة قاطعة أنّ الخيال الانساني فصلّ الله على مقاس
رغباته وشهواته وأمنيته. ألا تعلمين يا سيدتي أن الله منزّه عن المجانسة والمماثلة
والمضادّة فلا مثيل له ولا شبيهه ولا ضدّ ولا ندّ. ونحن ندركه على مقدار صفاء
ضماننا من الخبائث وعقولنا من الأعراض وسبب كل ذلك المخالفات لمنطق العقل
وقوانين الطبيعة.

ميرفت: تتكلم عن الخبائث وأنتم الشعراء منبعا وقنوات انتشارها وتسويقها،
تدغدغون الشهوات باسم الانجذاب الى الجمال، وتشجعون على انتهاك حرمت
العادات والتقاليد باسم قداسة الحبّ، تبنون للعشق عرشاً لا يتربع عليه إلا أصحاب
النفوس المرهفة النبيلة التي تنهد دائماً الى عالم اللطافة، والعشق في حقيقة أمره
مهنة القلوب الفارغة والنفوس الأنانية، باسم هذا العشق حجر الرجال على النساء
وصادروا لهنّ حرياتهنّ وجعلوا منهنّ دمي وظلال وأشباح، انها عملية استنثار
واحتكار بشعة ألبستموها ثياباً جميلة مرصعة بجواهر الرغبات المجنحة والخيالات
المحمومة.

إنّ الحبّ الحقيقي هو حبّ الله بعد معرفته، وألق هذا الحبّ بين الانسان وربه
ينعكس على باقي المخلوقات العاقلة وغير العاقلة فيغدو صاحبه نوراً يمشي بين
الناس، يحبهم ويحبونه، يثق بهم ويثقون به، يسعى لسعادتهم ويسعون لسعادته، إنه
الخير الإلهي عندما يفيض عبر الانسان على الآخرين حقاً وعدلاً وعطاءً وابداعاً

وتطوراً وارتقاءً، عندها يصبح التنافس تسابقاً الى العلى ومكارم الأخلاق وخدمة للمصلحة العليا للانسانية ولا يعود صراعاً على الغنائم بالحروب الحارة والباردة.

سليمان: إن أخطر الأمراض أن يكون المرء مريضاً وهو لا يدري بأنه مريض ولا يدري ما المرض، بل يذهب بظنه الى شيء آخر ويظل يطلب العلاج من ذلك الشيء الآخر حتى يهلك. فالخطوة الأولى لمحاولة العلاج هي معرفة المرض. إن جميع أمراضنا أيها السادة مصدرها الفكر الغيبي المربوط بفهمنا الخاطيء لفكرة القدر، والمربوط بفهمنا الخاطيء لفكرة التوكل على الله. مرضنا أننا لا نحترم القوانين السببية بل تجاهلها ونستهزئ بها، نبني مدننا عشوائياً دون أي تخطيط لبنية تحتية ثم تزدحم المدن وتتضارب المصالح فنخبط خبط عشواء، تغدو شوارعنا أزقة وشواطئنا مكبات زبالة وأنهارنا مستنقعات تلوث، مدارسنا بلا ملاعب ومكتبات، وجامعاتنا بلا مراكز أبحاث، الأساتذة مجرد ملقنين لفكر قديم يمضغونه كما يمضغ اليمني قاتمه، ويجترونه كما تجتر البقرة علفها، نواب مجالسنا أصحاب إقطاع سياسي وديني ومالي لا علاقة لهم بالتشريع والقوانين وهم يخافون التطور الى الأمام ظناً منهم أن ذلك سيكون على حساب امتيازاتهم فيجمدون ويجمدوا كل شيء معهم. ورؤساء المناصب الدينية أصبحوا يتربعون على عروش أوقاف تشبه الأمبراطوريات المالية الكبرى وريعتها يدر القناطير المقنطرة. كل هؤلاء الناس يكرهون الفكر العلمي ومنطق العقل والقوانين السببية ويبيعون الآخرين مواعظ وارشادات تعتمد الترغيب والترهيب كلها مأخوذة عن متصوفين وزهاد من سالف العصور تصور للناس أنّ الدنيا دار فناء والآخرة دار بقاء، وأنّ من يهتم بالدنيا ناقص الدين ملوث الضمير، فيحببون الناس بالفقر والاتكالية وعدم الاحساس بالمسؤولية. والأدهى من ذلك أنهم يحرضون الفقراء المعدمين على مزيد من الانجاب، والمرضى على احتقار الطب والأطباء والاستعاضة بزيارة الأماكن المقدسة والتبرك بدعاء المقامات الدينية للاستشفاء. هم يلبسون الحرير المرصع بالذهب والجوهر ويعيشون في قصور مسورة وحولهم الخدم والأزلام ناسين أو منتاسين أنّ السيد المسيح كان يركب أتاناً ويحمل شادوحاً، وأنّ عمر بن الخطاب كان يتفقد الرعية وهو حافي القدمين، وأن سلمان الفارسي كان يأكل خبز الشعير.

محمود: إنّ أدبياتنا الاجتماعية والدينية مليئة بالأحداث والأخبار التي تحضّ على كراهية الحياة الدنيا والتي تمتدح الفقر والجوع والمرض وهي تدعو دعاية واسعة للزهد وترك البيوت والعائلات والساحة في البراري والقفران. لا زالت كلمات جدتي ترن في أذنيّ وهي تقول لي وأنا أنام على ركبتيها صغيراً لتبسم لي وتحمدل وتدعو وتتضرع: " من أحبه الله قلل ماله وولده وعجل له القضاء". وكانت تقول أيضاً: " إذا أردت أن تكون في كبرك من أحباب الله فاستعد للفقر والمرض ونكد العيش". ولما كنت أحاول مجادلتها تبدأ بسرد قصص ابراهيم والجنيد ورابعة العدوية وأبي يزيد البسطامي وغيرهم ممن تركوا جاه الدنيا ومالها ونسائها واكتفوا بأكل خبز الشعير ولبس الأسماك والانقطاع الى العبادة.

سليمان: إنّ الله معبودٌ بذاته سواء عبدناه أم لم نعبد، فعبادتنا له لا تريد فيه شيئاً، وامتناعنا عن عبادته لا تنقص منه شيئاً لأنه الكمال المطلق بذاته، ولذلك نُعت بالصمد لأن كل موجود بحاجة الى وجوده وهو ليس بحاجة الى وجود أي موجود. ولهذا لا يحقّ لنا أن نضيف الموجودات الى الله فيصبح مفتقراً الى إضافاته كما الأب يفتقر الى إضافة الإبن اليه وكذلك الإبن يفتقر الى إضافته الى الأب، ولذلك دعوني أعبّر عن رأيي الشخصي في هذا الموضوع ولا تعتبروا ذلك بدعة، فالشيء الذي يربطنا بالله هو معرفته ومحبته وليس عبادته بمظاهرها الطقوسية والتكليفية، فالله مستغن عن عبادتنا أما معرفتنا له فهي لتحقيق إنسانية الانسان في ذاتنا وإلا انقلبنا الى حيوانات عجماء، وأما محبتنا له فهي ينبوع الخلق والابداع في عقولنا وعواطفنا وكل حواسنا. ولما كانت المعرفة هي الجاذب الاساسي الذي يجذبنا الى الله كان جوهر العقل الكلي يحيط بكامل الموجودات وكان العقل الكلي هو الباب الذي تدخل منه الى مدينة الله اذا أجاز لنا هذا التشبيه.

صونيا: إذا كان الله قد جعل العقل هو جوهر هذا الوجود، وإذا كان العقل في حركة دائمة لتقبل الفيض الإلهي من جهة وليفيض بدوره على جميع الموجودات ليضبط نظام صيرورتها من جهة أخرى، علمنا نتيجة ذلك أن الحركة هي أساس الوجود وإبنة الحياة، وأن الجمود هو إبن العدم وأساس الموت. فأن تجمد مفاهيمنا للأمور عند نظرة الأسلاف لهذه الأمور، وأن نعتبر تلك النظرة هي وحدها الحق واليقين

الذي لا يدخل إليه الشك من ورائه أم من أمامه، لعمري هذا مفهوم عدواني لكل قوانين العقل ولكل مبادئ التطور والإرتقاء. الخلايا في أجسادنا تتجدد كل سبع سنوات مرة ولا تبقى على حالها مجمدة، الدماء في عروقنا تتجدد كل سبع سنوات مرة، فما بالناس نحن أهالي هذا الشرق العتيق نرفض التجدد والتطور ونصر أن نتمسك بمفاهيم تعادي العمران والحضارة، وتعلمنا على كراهية الحياة وعلى أننا ضيوف يجب أن نشغل للأخرة وليس للدنيا، وتحاول جميع المرجعيات حتى المدارس والجامعات أن ترسخ هذه المفاهيم في أذهاننا لتصبح تابو لا يجوز مسّه أو الاقتراب منه.

حسام: عندما قلت في قصيدة الشرق العتيق:

دعاني الجمال بسن الكهول

الى ورد منهله الطيب

فأحسست أني غدوت رسولا

وأحسست أني غدوت نبي

علا الصفير والزعيق وصرخات الاستنكار، وكاد الجمهور يترجمني على المسرح لو لم أسارع الى الهرب من الباب الخلفي. إن عقلنا هو عقل إتباعي وليس عقلا إبداعياً، هناك خوف من الجديد، ينمي هذا الخوف دجالو السياسة والدين بتصوير التجديد أنه سير في ركاب ثقافة الاستعمار والمستعمرين، وبأنه محاولة لاغتصاب حضارتنا واستبدالها بحضارة أخرى، ولقد تناسى هؤلاء الدعاة الدجالون أن حضارتنا لم تصل الى ذروة تألقها وانتشارها في جميع أرجاء المعمورة الا بعد أن ترجمنا الفكر اليوناني والأدب الفارسي والعلوم الهندية وما تبقى من علوم البابليين والكلدانيين والرومان الى لغتنا العربية، ثم هضمنا ما ترجمناه وطبعناه بطابعنا ثم أعدناه الى الشعوب ثقافة عربية إسلامية مشرقية لها بصمتها الحضارية الخاصة بها والتي تميزها عن غيرها وإن تقاطعت مع غيرها في كثير من النقاط المشتركة.

سلوى: عندما نكف عن تعليق مشاكلنا على علاقة القدر، ونتحمل مسؤولية ما نفعله وما نحن فيه، ثم ندرس طبيعة مشكلاتنا دراسة علمية موضوعية، ونربط النتائج بأسبابها، ونرسم الخطط للانتقال من السلبيات الى الايجابيات، عندها فقط يصبح لنا ولو بعض أمل في اللحاق بموكب الحضارة العالمية، وبأن تكون لنا مساهمتنا في تلك الحضارة.

ميرفت:

لهفي على عدد وما خلقت إلا لطلول تلهف عدد

لأول مرة في تاريخنا الحديث ينال واحد منا جائزة نوبل للآداب، فبدل من أن نملاً الدنيا مهرجانات واحتفالات ونعتز ونرفع رؤوسنا ونطيّب نفوسنا، إذا بنا نطعن ذلك الاديب بالسكاكين ونضربه بالبندورة والبيض متهمين إياه بأنه أساء الى تراث السلف الصالح في بعض رواياته. يقول المثل الشعبي، عندما يستعصي المرض لا ينفع معه الى الكيّ بالنار نحن بحاجة ماسة الى ثورة ثقافية وكل الثورات لا تنفع إذا لم يسبقها ثورة ثقافية.

سليمان: ولكن في الشرق تأتي الثورات فتحرق ما اخضر، وتقلع ما زرع، وتهدم ما بني، وتشرد من اجتمع، والثقافة تبقى كما هي لا يسقط من رأسها شعرة واحدة إلا بأمر الذي في السماء والذي يمثله على الارض محتكروا الأمر والنهي. كل ثورات العالم غيرت القيم الخاطئة وحطمت أصنام التقاليد البالية، وجددت في مفاهيم علاقة الرجل بالمرأة، وعلاقة المرأة بالعلم والعمل، وعلاقة النمو الاقتصادي بالنمو السكاني، وعلاقة الحياة الدنيا بالحياة الآخرة إلا في هذا الشرق العتيق. تجتاح الثورات الأخضر واليابس، فتهدم الاقتصاد وتشرد الانسان وتغير معالم المدن والقرى وتبقى المفاهيم كما هي، فالانسان عبد لحقائق هبطت من السماء مع كامل تفسيراتها ومن يتناول على هذه الحقائق هو مهرطق زنديق خارجي مصيره السجن والمقصلة أو النفي في أحسن الظروف.

حسام: نحن لا نملك ثقافة جمالية تجعلنا قادرين على فهم معاني التناسق والتوازن والتناغم. أكثرنا ينظر الى المرأة ككتلة لحم ساخنة تحرك الانفعالات والغرائز وتستدر الشهوات، ولا علاقة لها بالوعي والعقل والابداع والانتاج والانتماء الى المجتمع والوطن والانسانية. يتعامل الرجل مع المرأة كذكر ويقيمها كأنثى متجاهلاً قيمها الاخلاقية ومداركها العقلية ومشاعرها الانسانية. إنه يشتهيها ويحتقرها بنفس الوقت، يتشوق لمضاجعتها ولا يثق بها بنفس الوقت، يأتئنها على عضوه الذكري ولكنه لا يأتئنها حتى على الانجاب من صلبه الا إذا أخفاها عن أعين الرجال الآخرين أو حجر عليها وجعلها حبيسة الحجاب والبيت، يشجعها على ممارسة الفرائض والطقوس الدينية وعلى تنمية الفكر الغيبي الذي يعتمد الخوارق والمعجزات، والفكر الديني القائم على الخوف والرغبة وعقد الذنب، يريد لها ثقيلة الردفين كبيرة الثديين يمور الشحم واللحم على ساقها ولا يهتمه أي تناسق في أعضاء جسدها فهي وعاء جنس وفاقسة أطفال وليست ينبوع وحي جمالي يحفر الرجل على الخلق والابداع.

سلوى: كل هذا سببه عدم احترام القوانين السببية، فالرجل الذي يملك ولو ذرة من منطق العقل يجب أن يعلم أن الأسرة الناجحة السعيدة يجب أن تكون ابنة عصرها علماً وعملاً أخلاقاً ومسلكيات، كيف نطلب النجاح من أسرة قائمة على التكاذب بين الرجل والمرأة وعلى إظهار الشيء واستبطن ضده بينهما وبين الاولاد. كيف نطلب النجاح من أسرة يريد فيها الرجل أن تكون المرأة عاهرة تقلد بنات الستربتيز في فراشه وتكون ملفوفة بالعباءة السوداء لا يظهر إلا الجزء اليسير من عينيها، ولا تتحدث إلا عن الجنة والنار والخطيئة وعذاب جهنم وعذاب القبر مع الآخرين. كيف نطلب من إنسان يعيش في القرن الواحد والعشرين ويتخرج بدرجات عالية من الجامعات وفي نفس الوقت يؤمن بالتبصير والتنجيم وتحضير الارواح وقدرة الجن على التواصل مع الناس وفعل المعجزات، وقدرة العفاريت على المنفعة والمضرة، وعلى تغيير مجرى حياة الكثيرين.

ماذا نرتجي من هؤلاء الناس الذين يدرسون الجدل الهيجلي في الجامعات ويلبسون الأحجة التي تقيهم العيون الشريرة ويبخرون بيوتهم كي لا يدخلها الجن إنها لعمرى إحدى أحجيات هذا الشرق العتيق.

ميرفت: إنها مفاهيمنا الخاطئة عن فهم معنى التوكل، حيث أنّ جميع فقهائنا ومتصوفينا وزهادنا والقائمين على شؤون الدين عندنا متفقون، رغم خلافاتهم الحادة في المذاهب والمكاسب، أنّ من اهتم لشيء في هذه الحياة الدنيا أو عمل له أو اعتقد أنّ أي شيء فيها يوصل الى شيء آخر، فقد خرج عن مبدأ التوكل. فالرزق مقسوم، وكذلك الصحة والعافية، وكذلك المال والبنون والجاه والنفوذ وأنّ لا نتيجة تبنى على أسبابها، وأنّ قرن النتائج بأسبابها هو بدعة أتت من ثقافات المستعمرين الأجانب والتي من واجبنا أن نتحصن ضدها وإلا إجتاحتنا وأفقدتنا ما خصنا به الله بأننا خير أمة أخرجت للناس. واتفق الفقهاء والزهاد والقائمون على مؤسسات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنّ كل من اعتقد أنّ شيئاً من الأشياء لا يمكن بلوغه إلا بأسبابه، أو أنه يستطيع أن ينفذ نفسه أو يضرها، أو أنّ احداً كائناً من كان يستطيع أن ينفذ أو يضره، أو أنّ أمراً يعتمد بوجوده على أمر آخر، أو أنّ أمراً معللاً بأمر آخر. إتفقوا أنّ كل من يعتقد ذلك هو خارج خروجاً سافراً وقطاً من جميع حدود التوكل ومن جميع أبوابه.

محمود: أنا كمزارع أعلم علم اليقين أنني لا أستطيع أن أبذر قمحي قبل أن أفلح الحقل وأنظفه مما علق به من طفيليات، وأعلم علم اليقين أيضاً أنني لا أستطيع أن أبذر قمحاً وأحصد شعيراً، ولا أن أزرع تينة ثم أدعو وأتضرع الى الله ليجعلها تكبر وتعطي شهى الثمر بغضون شهر أو شهرين، وذلك لأنني أعلم أنّ الدعاء والتضرع يأتي بعد احترام قوانين الطبيعة وتطبيقها بدقة وأمانة.

صونيا: قرأت الكثير عن أولئك المتفقيين والزهاد والمتصوفين الذين تحكّموا بمجرى حياة أجيالنا القديمة ولا زال تأثيرهم حتى اليوم سارياً بشكل فعال أمثال الغزالي والزمخشري والبسطامي والجنيد والسهروردي وابن تيمية وغيرهم ممن أخذ عنهم. فعندهم أنّ الواجب على المؤمن المتوكل أن يستسلم وأن يطرح أعباءه وأثقاله كلها على الله مسلماً نفسه للهدوء والراحة والكسل الذهني والجسدي معتقداً

أنّ الله سيفعل له كل شيء بلا أسباب موجبة. وهم يعتقدون أنهم كلما غالوا في ذلك الاستسلام والتخلي عن العمل والتفكير في المصير، التفت الله اليهم وسارع في قضاء حاجاتهم، وأنّ إيمان الانسان بمقاس مقدور بهذا الاستسلام والتخلي، ففي معتقدهم أنّ الله يجب أن ينفرد لهم في تدبير الرزق والصحة والحياة والأولاد والدفاع عن الأرض والعرض وكل ما يحتاجون اليه، وأنّ من حاول أن يوجد رزقه أو أن يشارك الله في إيجاده فهو كمن حاول أن يوجد حياته أو أن يشارك الله في إيجاده.

سليمان: الغريب في الأمر هو قدرة أولئك المتفهمين والمتصوفين والزهاد على تبوء مراكز الصدارة في ثقافتنا، واعتبارهم قدوة لها طابع القدسية الأمر الذي أفرز ضرورة إتباعهم والتبرك بهم والأخذ عنهم وعدم السماح بمناقشة آرائهم وكأنها اعتداء على محارم رغم مخالفتهم المكشوفة بل المفضوحة لأدنى مراتب المنطق والبديهيات العقلية حتى لا أقول أكثر. فهذا هو ذو النون المصري يعرف التوكل بأنه خلع الأرباب وقطع الأسباب، أما عبدالله القرشي فيقول: هو ترك كل سبب يوصل الى سبب، أي نفس القوانين السببية من جذورها وترك الأمور للعبث والمزاجيات، وهاكم ما ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين "أنّ الموت جوعاً قربي الى الله إذا كان الميت قد مات لأنه توكل على الله فترك العمل فلم يرزقه ربه القوت وانما رزقه الموت" ثم قال " وموت المتوكل جوعاً يجب أن يُعَدَّ رزقاً وغبيمة في الآخرة، أما أبو سليمان الداراني فقال: " لو توكلنا على الله ما بنينا الحيطان ولا جعلنا لباب الدار غلقاً مخافة اللصوص" وقالت طائفة أخرى أنّ التوكل ترك التدوي بالعقاقير والتدوي بالأدوية وبعض القراءات.

حسام: والداهية الدهياء أنّ هذه الآراء والأقوال تطايرت في الكتب التي خلفها هؤلاء تطايراً لم يستطع العقلاء وقفه ولا تحديد مداه، ثم فاضت من الكتب الى الألسنة والعقول والأوهام، فما من خطبة خلت من ذكرها ولا من موعظة لم تتضمن معانيها وألفاظها، وحتى يومنا هذا نحن نراها تتطاير على شاشات الكومبيوتر عبر الفيس بوك. أنا هنا أسأل نفسي وأسألكم سؤالاً بسيطاً أن الشعوب التي تلقن منذ وجودها أنه يصح لها أن تعتمد على قواها وعقولها وسواعدها، وتلقن أن هناك قوة

عليها مستعدة دائماً أن تقوم بكل ما يراد منها شرط الالتزام بالفرائض والتكاليف والطقوس وآراء السلف الذين كرسوا حجج وأئمة وأساتذة وشيوخ.. هكذا شعوب كيف ستواكب مسيرة الحضارة العالمية، وكيف ستشارك في الانتاج العلمي والفلسفي والأدبي والفني.. كيف سيكون لها مفكريها ومخترعيها والعقول مصادرة إما من قبل عسس السلطان وإما من قبل عسس المرجعيات الدينية، كيف سنمارس حرياتنا في الخلق والابداع ونحن مراقبون إن كنا نحبي السلطان وندعو له ونتضرع كل صباح ساعة نهوضنا أو لا، وإن كنا نؤدي الشعائر والفرائض أو لا نؤديها راضين مسلمين برعاية أصحاب الشأن هنا وهناك أو غير راضين ومسلمين، شاكرين حامدين لأفضالهم التي تعطي منهم كراماً وليس لاستحقاق نستحقه أم غير شاكرين.

سلوى: وعادت الدائرة الى نقطة البيكار، تشرّقون وتغرّبون ثم تعودون الى حجر الزاوية الذي هو مفهومنا الخاطيء عن القدر.

محمود: أنا كمزارع أقول أننا لو قصدنا أرضاً غنية بالعناصر الصالحة للإنبات وفلحنا هذه الأرض جيداً ثم بذرنا فيها بذورنا ورويناها حسب الاصول وحميناها من الآفات الزراعية، كان إنباتها وإعطاؤها الموسم الجيد حتماً جزماً وكان عدم إنباتها من المحال.

أما إذا قصدنا أرضاً مالحة سبخة غير صالحة للإنبات وبذرنا فيها بذورنا فمهما رويناها وحميناها فهي ستنبت نباتاً ضعيفاً أو لن تنبت على الاطلاق، وهذا أيضاً من الحتم والجزم ولا مجال للمصادفات السارة أو المحزنة، أستنتج من كل ذلك أن هناك مقدمات تقود الى نتائج وأسباب تقود الى مسببات وأن لا شيء وليد الصدفة أو العبثية وظني لهذا قال السيد المسيح بالكيل الذي تكيل به يكال لك.

سليمان: سلفنا الذي نعتبره صالحاً وقدوة، ينكر الاسباب والأخذ بها جملة، وينكر أن يكون لها شيء من الأثر على مجرى الأمور، ويطعن في عقيدة من يأخذ بها ومن يراها شيئاً. فالغزالي يقول في كتاب منهاج العابدين " فإن قيل هل يلزم العبد طلب الرزق فاعلم أن الرزق فعل الله للعبد كالحياة والموت، لا يقدر العبد على تحصيله

ولا دفعه. وأما المقسوم من الأسباب فلا يلزم العبد طلبه إذ لا حاجة للعبد إليه وإنما حاجته إلى المضمون وهو من الله وفي ضمانته" ثم أردف لقد أحسن الشاعر يوم قال:

جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

ولما سئل الجنيد عن طلب الرزق والعمل له قال: " الحيلة في ترك الحيلة فالاهتمام بالرزق قبيح يؤذي الدين وهو بالعلماء أقبح".

أما ابن عطاء الله السكندري فقد ألّف كتاباً في هذا سماه التنوير في إسقاط التدبير يقول فيه نقلاً عن الشاذلي " إن كان ولا بدّ من التدبير فدبروا ألا تدبروا" ثم قال " إن المدبر لنفسه مع الله يبني والله يهدم وأورد قول الشاعر:

متى بلغ البنيان يوماً تماماً إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

وقال أيضاً التدبير شجرة تسقى بسوء الظن بالله وثمرتها القطيعة مع الله.

حسام: كان جدي معلم عمار يكدح بتقصيب الحجارة وبنائها من شروق الشمس حتى غروبها، يعود إلى البيت فيغتسل ويأكل ثم يتناول أحد الكتب الصفراء ويبدأ بقراءة ما تيسر من أخبار الزهاد والمتصوفين متبركاً بسيرهم محاولاً تقليد مسالكهم في المأكل والمشرب والملبس، كان جدي يناديني ليسمعني بعض الحكم التي تهذب النفوس برأيه وتنضج العقول، لا زلت أحفظ عن ظهر قلب بعض أشعار أولئك الحكماء برأيه وهو ينشد لهم:

فأولو التدبير هلكى
نحن أولى بك منكأ

لا تدبر لك أمراً
لمّ الأمر تجدنا
وشعر آخر:

شبه الظل الذي يمشي معك
فإذا وليت عنه تبعك

تجد الرزق الذي تطلبه
أنت لا تدركه مستعجلاً

المرحوم جدي كان نشيطاً بجسده كسولاً بعقله، فهو قد اعتاد النشاط الجسدي تربية من أخيه الأكبر ولكن عقله بقي في رعاية السلف الصالح فعدم التدبير رغم نشاطه في العمل، ومات فقيراً ولم يورث أبي إلا الفقر، ولكنه أورثه الكثير من عفة النفس وعزتها وأورثه ذلك المفهوم العجيب عن العلاقات الزوجية، فممارسة الجنس برأيه حرام إلا بقصد إنجاب الأطفال، كانت جدتي تقول لنا أن جدي لم يكن يقربها إلا كل عدة شهور مرة أو في بعض الأحيان يمتد الزمن الى عدة سنوات، بالطبع والذي لم يكن بعفة جدي ولكنه كان عفيفاً إذا اعتبرنا هذا الشيء عفة وليس من باب تعدي الانسان على نفسه واضطهاده لها.

ميرفت: لكل فعل ردة فعل تساويه في القوة، مسلكياتك ردة فعل حقيقية لمسلكيات أبيك وجدك، ألهذا السبب أنت لا تلمح تنورة تتمايل فوق جسد إلا وتضيء عينك رغبة ولا ترى ثدياً ناهداً إلا ويسيل لعابك شهوة ثم بعد ذلك تتذرع بأنك كاهن في معبد الجمال تقدم ابتهالاتك كلمات ملونة ومناجاتك إيقاعات لها علوق بالأذان والقلوب. وتقول في إحدى أمسياتك الشعرية أن قصائدك صلاة لأنها تساعد القاريء أو السامع أن يبني صلة مع الله عبر ما لطف من أنغام وما جمح من أحاسيس، ثم تقول أنك تحول كيائك المادي الى كلمات وإيقاعات وتقول للناس هذا جسدي فكلوه وهذا دمي فاشربوه وهذا صوتي فلينداح حتى أعماق أعماقكم وهذه صورتي فلتنطبع على مرايا خيالاتكم، تعشقون نواتكم وتمارسون الحبّ مع أشباحكم. نحن في محاولتنا للاستنهاض بحاجة الى فلاسفة ولسنا بحاجة الى شعراء مهووسين أو بكائين.

صونيا: فلنعد الى نقطة بيكار الدائرة، الى مفهومنا الخاطيء عن القدر. لنا شخصياً اعتقد أن الإيمان بقدرة الله المطلقة تقتضي منا الإيمان بالسبب لا إنكار وجوده لأن الإيمان بالسبب هو في الواقع الإيمان بمسببه وصاحبه وإنكاره هو إنكاره، والشاكون في أسباب الله، وكل ما في هذه الدنيا من قوانين هو من أسباب الله، شاكون في الله نفسه وفي عمله.

سلوى: عدم الإيمان بأن الله جعل لكل شيء سبباً فأتبع سببه يضع الله في خانة ذلك الجبار العبثي الذي خلق الكون ليلعب به، وخلق الانسان ليلهو بمصيره وحاشا الله

من هذا التصور الصبياني. وها هم علماء الفيزياء والكيمياء والأحياء يضعون كل يوم بين أيدينا معادلات هي قوانين لصيرورة العناصر وتفاعلها وكيف تتركب ثم تتفكك. وعندما وضعت شعوب الغرب يديها على هذه القوانين وسارت على نهجها إخترعت وأبدعت ونظمت ومنهجت فتطورت وارتقت وسادت وتمتعت بنعيم تطورها مادياً ومعنوياً. أما نحن فلا زالت حياتنا كما قال الشاعر نزار قباني خبز وحشيش وقمر.

سليمان: أنا أفهم الأمور هكذا، كل شيء موجود في دائرة المعرفة البشرية بالفعل أو بالقوة، العقل البشري مسؤول عن معرفته، وعن التناغم مع هذه المعرفة، فهو سيده ومنظمه ومدبره، وهو يملك الحرية التامة في التعاطي معه سلباً أو إيجاباً، وهو المسؤول عن تعاطيه. وفي هذا المجال الانسان يصنع قدره بيديه على مبدأ لكل فعل ردة فعل تساويه في القوة وعلى مبدأ أنت حرّ إذن أنت مسؤول. أما الأشياء التي هي خارج دائرة المعرفة البشرية ولا يستطيع العقل البشري الإحاطة بها للتناغم معها فهي ما يمكن أن نسميه القدر. وإني أفهم نتيجة ذلك أنّ القدر بمفهومه السائد دائرته كبيرة جداً عند الانسان الجاهل المصر على جهله والذي لا يملك الحوافز للخروج من مستنقع جهله، وما يصح في الأفراد يصح في الشعوب، بينما القدر بمفهومه السائد دائرته ضيقة جداً بالنسبة للانسان العارف الساعي دائماً لمزيد من المعرفة سواء معرفة نفسه أو معرفة قوانين الطبيعة.

محمود: إذن نحن نوسع دائرة القدر إذا أصرينا على جهلنا بجمودنا عند محطة زمنية نصر على عدم تجاوزها، ونحن نضيق دائرة القدر إذا فهمنا أنّ الحركة هي جوهر هذا الوجود وأنّ مبدأ الوجود هو مبدأ التطور والإرتقاء، وأنّ الانسان من واجبه تجاه نفسه وتجاه مبدأ الحياة أن يتحرك بشكل دائم لاكتساب مزيد من المعارف والتجارب ليتطور ويرتقي.

حسام: الانسان شريك الله في عملية الخلق والإبداع، فكيف يجوز له أن يكون عبداً للقدر، إذا كان في جوهر الانسان قيس من نور الله وإذا كان القدر في قبضة الله فهذا يعني أنّ القدر يجب أن يكون في قبضة الانسان.

ميرفت: أفهم من كل ذلك أننا كلما ازددنا قرباً من الله بالمعرفة والمحبة كلما غدونا
أسياد أقدارنا، وكلما ازددنا بعداً عن الله بالجهل والكراهية كلما غدونا عبيداً
لأقدارنا.

صونيا: وبما أن الله أطل علينا من خلال قوانينه التي نظم بها كائنات هذا الكون
وصيرورتها، معنى ذلك أننا كلما اقتربنا من معرفة تلك القوانين وتناغمنا بمسلكياتنا
مع مبادئها كلما كنا أقرب الى الله وأكثر حباً له.

سلوى: معنى ذلك أنّ من لا يحترم قانون أن الله جعل لكل شيء سبباً فأتبع سببه هو
في حقيقة الأمر يخالف ولا يطيع وأنا أفهم أن الطاعة هي العبادة.

حسام: بل المحبة هي العبادة:

يعتريني أو لهيب
أشرقتم شمس حبيبي

لست أدري أي شوق
إذ على مرآة ذاتي

الجميع: نحن أسياد أقدارنا لأننا عقلاء أحرار عشاق نمشي بنور الله ونهتدي بمنطق
العقل الكلي.